

إشكالية الجمع و الوضع في المعاجم العربية التراثية

الأستاذ / صلاح الدين زلال.
جامعة فرحات عباس سطيف.

المقدمة:

يعدّ العمل المعجمي من أهمّ الأعمال اللغوية التي تحفظ ماء الوجه للأمة، وتطوي مفرداتها بين صفحات لتبقى خالدة على مرّ الدهور؛ ولذا أعطى علماء العربية القدامى الأولوية لمثل هذه الأعمال، وأخذوا يرتوون من كلام العرب الأفحاح ومن العلماء الفطاحل، دون أن ننسى أهمّ مصدرٍ انطلقوا منه وهو القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تطوّر العمل المعجمي إلى أن ألفوا في المعاجم المتخصصة في ميدانٍ ما، ولمّا حلّ العصر الحديث قلّ العمل المعجمي وشاعت فكرة أنّ اللغة العربية ثابتة مع ثبات القرآن الكريم، ومادام الأمر كذلك فإنّ المعاجم العربية التراثية زاخرة بمثل هذه المفردات، فلا داعي أن نقوم بصناعة المعاجم.

ولمّا كان المعجم جزءاً من العمل اللساني بصفة عامّة، فقد اكتسب أهميةً مقارنةً بالمستويات الأخرى، خاصّةً إذا علمنا أنّ المعجم يبحث بالدرجة الأولى في المعنى، وأنّ المعنى من أعقد مستويات التحليل اللساني، وإذا كانت الأبحاث اللسانية الحديثة بعد ظهور نظرية سوسير *Saussure* قد أخذت بيد النظريات اللسانية الغربية نحو التراث، فإنّ المعجم العربي قد سلم ولو بشكلٍ ضئيلٍ من هذه العملية، ورغم ذلك فقد حاول المختصّون في هذا المجال أن ينتقوا بعض الآراء من الثقافة اللسانية الغربية حول المعجم، فجرى على المعجم ما جرى على الأعمال اللسانية الأخرى.

وتأسيساً على ما سبق، فقد سار البحث اللساني في الوطن العربي وفق إشكالية تحديد موقع البحث من الثقافة والعلم والعولمة، يقول الباحث " منذر عياشي " واصفاً هذه الوضعية: " لا تزال اللسانيات في العالم

العربي ذلك المجهول الذي يثير فينا ريباً وشكاً، وتوجساً وخوفاً، أكثر مما يثير فينا نزعة - ولو فضولية - لمعرفة موقعنا من واقع الثقافة، والعلم، والمعرفة في العالم". (1)

وعليه يرى الباحث " عبد القادر الفاسي الفهري " أن "... البحث اللساني العربي قد سار في اتجاهين: اتجاه أول، سماه بلسانيات الظواهر، تجسد في محاولة بناء أنحاء للغة العربية الحالية أو للهجات العربية الحالية، إلا أن قليلاً جداً من الأبحاث ما اهتم بنحو اللغة العربية القديمة. وهذا الاتجاه برمته غير منتشر على كل حال في العالم العربي، بل جُلُّ متزعميه يوجدون في الغرب، أو درسوا هناك. واتجاه ثانٍ اهتم بدراسة التراث النحوي / اللغوي / البلاغي، و اقترح قراءاتٍ متعدّدة لهذا التراث، وهذه القراءات على نوعين: قراءات تقف عند شرح المادة الموجودة في التراث وتنظيمها، وقراءات تحاول أن تنتقل ممّا هو موجود في هذا التراث بغية عصرنته والخروج به إلى الحاضر. القراءات من النوع الأول نفهمها على أنها مساهمة في التعريف بالتراث وإحيائه وتسهيل الاطلاع عليه. والقراءات من النوع الثاني نريدها مساهمة في تاريخ الفكر اللغوي القديم، علماً بأنّ هذا العمل يكون... ذا أبعادٍ نظرية محدودة، وأنه لا بدّ من احتياطاتٍ منهجية على النتائج التي تصل إليها مثل هذه الأبحاث، نظراً لأنّ القارئ غالباً ما يسقط ما هو محمّل به من تصوّرات، ويجد في التراث ما لم يكن فيه في ظروفه التاريخية، وما لم يكن في المنظومة المعرفية لعصره". (2)

إنّ هذا الموقف الصريح من الباحث يؤكّد أنّ الخطورة لا تكمن في القراءات الأولى، بل في القراءات الثانية، وعليه هو يحتاج من الناحية المنهجية على الأقل؛ ذلك أنّ القراءات من النوع الثاني تنقل كاهل الباحث والقارئ على حدّ سواء بما تحمله من معانٍ نبتت في تربة غير التربة العربية الأصيلة، وعليه فإنّ تفسير اللسانيات الغربية بالتراث قد يوقعنا في مأزق لا مخرج منها. يقول أحد الباحثين واصفاً هذا الظرف: " لقد ظلّ الدارسون في الحقل اللغوي الحديث يرتوون في توضيح المفاهيم التي درّتها اللسانيات الحديثة من المصطلحات التراثية، ولكن إذا ما حاولنا إلقاء نظرة دقيقة وفاحصة حول بعض المصطلحات، فإنّنا نلاحظ أنّ الكثير منها يكتفه اللبس وعدم الوضوح في المفهوم. إنّ هذا الغموض الذي يطبع بعض المصطلحات الأصلية المستعملة في الدرس اللساني الحديث أضحى يعيق النفاهم بين المتعلّمين والباحثين... إنّ توظيف المصطلحات التراثية بدون الأخذ بعين الاعتبار الأسس النظرية التي تقتضيها المصطلحية في جانبها المفهومي... قد يؤدي إلى التعقيد وعدم الوضوح، وبالتالي قد يولّد لدى المبتدئين نوعاً من النفور". (3)

وهذا النفور ناتج أولاً من صعوبة تكييف مصطلحات اللسانيات الحديثة وفق رؤيتنا لعالمنا، ووفق رؤية علماء العربية القدامى لعالمهم ثانياً، " وللحقيقة نقول إنّ هذا الفشل يعود إلى أنّنا قد عزلنا هذا العلم عن الحضارة التي أنشأته وولّدته...". (4) ثمّ " إنّ العقلية العربية لها طبيعة خاصة هي نتاج بيئتها، وعيشة اجتماعية خاصة يعيشها العرب في جاهليتهم، ودين إسلامي أتى بتعاليم جديدة ورسم للحياة مثلاً أعلى يخالف المثل الذي كانت ترسمه تقاليد الجاهلية...". (5)

" إنَّ التَّراث اللُّغوي العربي دليل حضارة شَيِّدت بنيانها وفق نظامٍ، كان العقل المعماري فيه هو الأساس لكلِّ تصوّرٍ نظري وعملي، وإنَّ تراثاً كهذا، لا يُعقل أن يكون قد خلا من معالجاتٍ دلاليةٍ بمفهوم العلم كما ندركه الآن، خاصّةً وأنَّ التراث اللُّغوي يعدّ سمةً فارقةً لحضارة قومٍ، يمكن أن نطلق عليها (حضارة النصّ) (6). والعبرة الأخيرة تؤكد أنَّ البحث اللُّغوي العربي ترعرع بين أحضان البيئة الثقافيّة العربية الخالصة ولذا لا تصحّ دراسته إلّا من الدّاخل.

ولئن كان الباحثون يصرون على الخصوصية النصّية / الحضارية للبحث اللُّغوي بصفةٍ خاصّةٍ، فإنّنا نعتقد بداهةً أنَّ هذه الخصوصية احتضنها النصّ القرآني بالدرجة الأولى؛ ذلك أنّه أحدث في اللّغة ما لم يكن، بل أعجز العرب الفصحاء في لغتهم، وهكذا كان السبب الرئيس في بداية البحث، وإذا كان جلّ الباحثين يقرّون بمبدأ اللّحن بعدّه ركناً أساسياً دفع بالباحثين إلى هذا العمل، فإنّني أرى غير ذلك؛ ذلك أنَّ المعنى كان من أساسيات البحث اللُّغوي، أمّا اللّحن فقد ارتبط بدخول فئة الإسلام، و يتعلّق الأمر بالأعاجم.

" فمن الحقائق المقرّرة أنَّ الحياة العلمية العربية نشأت وتطوّرت في ظلّ القرآن الكريم؛ ذلك أنَّ المسلمين لم يروا في قرآنهم كتاباً يُتلى في الصلوات أو يرتل في المناسبات، ولكنهم آمنوا به كتاباً ينظّم حياتهم كلّها بحيث ينبغي أن تتسق هذه الحياة مع ما جاء به القرآن الكريم ومن هذه الحقيقة الكبرى في حياة المسلمين كانت حركتهم نحو (العلم) في سبيل (فهم) النصّ القرآني والوصول إلى ما يحتويه من أحكام (7). " ... ثمّ إنّ ارتباط المسلمين بالنصّ القرآني جعلهم يبدأون بما هو عملي قبل أن يصلوا إلى وضع (منهج نظري) لكلّ فرعٍ من فروع البحث التي ارتادوها آنذاك، فكانت قراءة القرآن عن طريق (التلقّي والعرض) أسبق من وضع كتب تحدّد منهج القراءات... ومن هذا التطوّر العام نستطيع أن نتصوّر تطوّر الدّراسة اللُّغوية عند العرب بحيث نراها بادئةً بما هو عملي من حيث جمعُ الألفاظ وضبطُها ثمّ دراسةُ التراكيب اللُّغوية قبل الوصول إلى منهجٍ عامٍّ في درس اللّغة على ما رأيناه بعد ذلك في القرن الرّابع (8).

يقول أحد الباحثين راسماً حدود الخصوصية النصّية / الحضارية للتفكير اللّساني العربي: " لعلّه ليس من الغلوّ في شيءٍ إن ذهبنا إلى أنَّ النصّ القرآني كان بالنسبة إلى الثقافة العربية الإسلامية العامل الأساسي الذي وجّه الفكر ورسم آفاقه. بسببه نشأت جملة العلوم التي تدور في فلكه... وكذلك العلوم التي تبدو في الظاهر بعيدةً عنه مثل علم اللّغة والنحو وخاصّة البلاغة (9). " ثمّ يضيف: " ولما حدث الإسلام و نزل القرآن نصّاً يحمل مبادئ الشريعة و أصول تشريعها تأكّدت طبيعة هذه الثقافة باعتبارها ثقافة النصّ، حوله تنشأ المعارف ومن أجله تنتظم الأنساق وبغية فهمه تستنبط أدوات النّظر، ولكنّ الأمّة احتكمت إليه فاختلّفت واستندت إليه فاحتاجت إلى أن تعضد الرّأي بوسائل الإقناع (10).

وعلى هذا، كان الشّعْر العربي السند الأساسي في فهم المستغلق من ألفاظ القرآن الكريم، فقد " نشأ الدّرس اللُّغوي عند العرب في رحاب القرآن الكريم؛ لأنّ العلماء المسلمين توقّفوا أمام الكتاب العزيز محاولين فهمه، والتّوصل إلى معانيه، وهذا لا يتأتّى لهم إلّا بدراسة اللّغة الشّريفة التي نزل بها... (11). " وقد شعر العلماء،

منذ الصدر الأول للإسلام، باجتهت إلى الشعر العربي، للاستعانة به، في فتح مغاليق الألفاظ، والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فأكبوا عليه يروونه، ويحفظونه، ويدرسون أساليبه ومعانيه... (12) وذلك لأنّ " القرآن كان عربياً مبيناً، ألفاظه ألفاظهم، وتراكيبه على نظام تراكيبهم*... وكانوا يسمعونهم فيفهمونه، ويبتلونهم فلا يستعصي عليهم منه شيء... فكونه عربياً هو الصفة الأولى للقرآن، والإبانة هي الصفة الثانية... (13) ولعلّ أول عملٍ كان في هذا الإطار، هو ذلك الذي قام به الصحابي الجليل " عبد الله بن عباس "، فقد كان الأجدر من بين الصحابة في التأويل، فضلاً من الله بعد أن دعا له النبي - صلى الله عليه وسلم - : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)*... وقد كان " ... يساعده في ذلك إحاطته بالآثار الأدبية التي يمثلها الشعر وروايته، وكان له منهج واضح المعالم في هذا التفسير، يأتي على رأسه بيان معنى اللفظة القرآنية في ضوء أحد أبيات الشعر... (14)

وبضيف الباحث " أحمد فرج الزبيعي " واصفاً هذا المسار: " ولما كان القرآن الكريم يحوي من الألفاظ ما نسميه الغريب والنادر، فقد استعان الصحابة بالشعر لتفسيرها، وكان رائد الصحابة في ذلك وحامل رأيهم الصحابي الجليل عبد الله بن عباس - حبر الأمة وترجمان القرآن -... وكان هذا الصحابي الجليل يقوم مقام المعاجم اللغوية في تفسير ما استغلق من غريب القرآن على الناس، مستعيناً بشعر العرب... وأشهر السؤالات التي وجهت إلى ابن عباس ما نشره الدكتور إبراهيم السامرائي في كتاب مستقل سماه (سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس)... (15)

وهذه التي ذكرها الباحثون هي المرحلة الأولى في جمع اللغة، وما نود الإشارة إليه في هذا الصدد أنّ هناك من لم يعدّها كذلك، بعدّها مفتقدة لمنهجية العمل المعجمي الذي يشترط التنظيم، ولكن مع ذلك قرنّها البعض بمراحل جمع اللغة؛ ذلك أنّها تبحث في الدلالة، ومادام الأمر كذلك، فيجوز عدّها على الأقلّ مرحلة تمهيدية لظهور الكتيّبات الصغيرة نواة المعاجم الموضوعية. وعلى ذلك عدّ البعض هذه المرحلة المتمثلة في سؤال الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، ثمّ سؤال الناس للصحابة على وجه الخصوص عبد الله بن عباس، بمثابة المعجم المنطوق؛ وذلك لأنّه لما كانت تستغلّق عليهم الكلمة في دلالتها، فإنّهم يسألون عنها حتّى يجدوا لها مقابلاً خاصّة في شعرهم، " وهذا معناه أنّ المعجم موجود لديهم، وهو معجم منطوق لا مكتوب كما نعهده الآن (16).

ولما كانت مقاصد العرب آنذاك هو البحث عن وجود اللفظة الغريبة في كلامهم وبالأخصّ الشعر، فقد أوصى هذا الصحابي الجليل بملازمة الشعر، يقول: " الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه "، وقال في المعنى نفسه: " إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإنّ الشعر ديوان العرب (17) ثمّ تطوّر ذلك بإحساس علماء العربية بوجوب جمع اللغة من البوادي ومن الأعراب الأفحاح،*** ومن ثمّ استطاعوا أن يبدأوا عملهم هذا في

شكل لا يخضع للتنظيم، من قبيل جمع اللغة كيفما اتفق، وبعد ذلك استقام لهم المنهج فألفوا الرسائل اللغوية. (18)

وحين بدأ العمل المعجمي غير خاضع لنظام، فكّر علماء العربية في إنشاء رسائل مستقلة تحمل الواحدة منها في طبائتها المفردات المنتمية إلى موضوع واحد، فكتبوا في الحيوان وخلق الإنسان والنبات وغيرها، يقول الباحث " حلمي خليل " في هذا الصدد: " لقد كانت النواة الأولى التي قامت عليها صناعة المعجم العربي قديماً هي تلك الرسائل والكتب الصغيرة التي جمعها الرواة وعلماء اللغة من أفواه العرب الخالص في الجزيرة العربية منذ نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الثالث تقريباً، وكانت هذه الرسائل والكتب تجمع الكلمات المتصلة بموضوع واحد لا تكاد تتعداه، فكان منها رسائل وكتب الخيل والإبل والشاة والشجر ... ". (19)

ويضيف أحد الباحثين مبيّناً دواعي تأليف الرسائل ذات الموضوع الواحد: " وقد دعت إلى وضع الرسائل اللغوية، دواع عامة وخاصة: فالدواعي العامة هي ما ذكر من فساد الملكة اللسانية التي تتمثل في اللحن... أما الدواعي الخاصة، فهي أنّ الرسائل اللغوية ظهرت في صورتها الأولى خاصة، إذ إنّ مؤلفيها التفتوا إلى شأن الموضوعات الخاصة الجزئية، فتناولوا منها الخصائص التي تدقّ، وأوصافها التي تختصّ بها، وذلك بحاجة الرغبة في أن تبقى لهم لغتهم طيعة موائمة لبيئتهم وحاجاتهم، إذ إنّ اللغة بالنسبة لأصحابها نصف الحياة وأداة التعبير، إن جمدت بيئتها جمدت معها الحضارة، وحضارة العرب معارف وفنّ وأدب، فالرسائل اللغوية تعطي أكبر دلالة علمدى انتماء العربي إلى وطنه، لأنّها في أغلب مادتها تعرض للحيوان كالخيل والإبل... ". (20)

و" لم يختلف علماء العربية في أهمية الرسائل اللغوية في الحقل الدلالي، لأنّها أول العلوم اللغوية تدويناً، ثم تطوّرت إلى (معاجم معاني) وهي التي يطلق عليها معاجم الموضوعات، أو معاجم تداعي المعاني، فاسمها يدلّ على أهميتها في الأثر الدلالي... لذلك فإنّ المنهج العام لهذه المعاجم المتجانسة، لا يختلف كثيراً من حيث الترتيب والتقسيم والتبويب، وليس من المبالغة إذا قلت إنّ هناك تشابهاً في توزيع المفردات داخل هذه المعاجم، و- أعتقد - أنّ وجه الخلاف يظهر في قلة المفردات وكثرتها، والالتفات اللغوي، لأنّ لكلّ منها فناً ربّما يتفق أو يختلف ". (21)

إنّ عدم الاختلاف كثيراً بين مؤلفي الرسائل اللغوية يدلّ ضمناً على الرؤية الموحدة للعالم، حتّى إنّهم لم يؤلّفوا سوى في موضوعات مخصوصة هي من بيئة شبه الجزيرة العربية، أضف إلى ذلك فقد احتكّ العرب بالحضارات المجاورة لهم " وكان من نتيجة مواجهة اللغة العربية للحضارات الجديدة أن تنشط إلى جانب جمع اللغة حركة لغوية على مستوى علم الدلالة:

أ- توسّعوا في مدلول بعض الكلمات، ولم تكن هذه الكلمات في أصل وضعها تحمل المعاني التي باتت تحملها من جديد...

ب- لم يقف علماء اللّغة عاجزين حيال المسمّيات التي لم يجدوا لها، في لغتهم عند الوضع، ما يصحّ لإطلاقه على هذه المسمّيات التي ليست موجودة في بيئتنا، فانقضوا على اللّغات الأعجمية يستعبرون منها المسمّى أو المدلول الأصلي فيها... ثم يخضعونه لعملية تسهيل وتهذيب... وهذا ما يسمّى باسم (التّعريب) ". (22)

أمّا الباحث " منذر عياشي " فيرى أنّ هناك أربع مراحل في تطوّر لغات العرب:

1- مرحلة تعدّد اللّهجات وسيادتها: وهي مرحلة ما قبل الإسلام، حيث كان الإنتاج الشّفوي شعراً و نثراً، وكلام القبائل في حياتهم اليومية هو الأساس لكلّ نشاط لغوي. لقد انعكس الموقف الحضاري للفكر الإسلامي في ذهنية الباحثين العرب تجاه اللّهجات، فعالجوها بطريقة غير الطّريقة التي يعالج بها الباحثة اليوم قضايا اللّغة بصورة عامّة، واللّهجات بصورة خاصّة.

كان من أبرز مميّزات هذا الفكر جملة منطلقاته. فلقد جعل التعدّدية أساس بحثه، فانطلق منها بحثاً عن العناصر العامّة والمشاركة التي تضع الظواهر ضمن نظم من القوانين تمثّل وحدة إنتاجها. وهذا يعني أنّ وحدة الإنتاج، ضمن هذا الفكر، تقوم على تعدّدية المنتج. ولذا نراه يذهب من التحليل إلى التركيب، ومن النّظرة التي تجعل الأجزاء يناقض بعضها بعضاً إلى النّظرة التي تجعل الأجزاء يكمل بعضها بعضاً. وغدا هذا الموقف من ثمّ شرطاً لكلّ بحثٍ علمي عندهم... (23) وبما أنّ اللّغة ظاهرة طبيعية - وإن كانت فريدة في نوعها وخاصّة بالإنسان - فليس لنا من سبيل سوى العودة إلى الأسس أو النّظم التي تشكّلت بها حتّى غدت جملاً منطوقة أو مكتوبة... (24)

2- مرحلة وحدة المصدر: وهي مرحلة زمانية وحضارية، صار القرآن فيها مصدراً معيارياً لكلّ إنتاج لغوي. فاستقت منه اللّهجات، وبه تأثّرت، ولكنها حافظت على كثير من خصائصها النّطقية واللفظية في الوقت نفسه....

3- مرحلة الميل عن الفصحى: ونلاحظ في هذه المرحلة ظهور شيئين لم يكونا في المرحلتين السّابقتين:

- ظهور الخطأ في استخدام حركات الإعراب.

- ظهور (العاميّة) وانقباض الفصحى.

4- مرحلة العودة إلى المصدر: وهي المرحلة التي تمرّ بها اللّغة العربية اليوم. إنّها تجمع مظاهر المرحلة السّابقة، أي مرحلة هيمنة العاميّة، ولكنها تملك من الخصائص ما يجعلها مغايرة لها. ولهذا الاعتبار، لا يمكن النّظر إليها كامتدادٍ مباشرٍ وطبيعي للمرحلة السّابقة ". (25)

وبعد هذا كلّه ظهرت معاجم الموضوعات، واهتمّت بالموضوعات الأساسية المرتبطة بالبيئة التي ظهرت فيها هذه المعاجم، يقول الباحث " محمود سليمان ياقوت " موضحاً الظّرف الذي حكم العمل المعجمي الموضوعي عند علماء العربية القدامى: "... إنّ التّقسيم الموضوعي لألفاظ اللّغة يعدّ مناسباً للمقام نفسه، ونقصد بذلك أنّ جامع اللّغة حين يلتقي بواحد من الأعراب الأجدى أن يأتي إلى شجرة في البادية - مثلاً - ثم يطلب

منه أن يحدّثه عن الأوراق والجذع والساق... ولعلّه ممّا يؤيّد وجهة نظرنا هذه أنّ الموضوعات التي سارت عليها الرّسائل اللّغوية كانت مستقاة من بيئة شبه الجزيرة العربية نفسها...". (26)

ولم يكتف علماء العربية بالتأليف في هذا النوع، بل قادهم تفكيرهم الجدّي إلى صناعة معاجم ألفاظٍ مختلفة من حيث التّرتيب والتنظيم والمحتوى عن معاجم المعاني، " فالفرق الحاسم بين معاجم الألفاظ و معاجم المعاني، أنّ معاجم الألفاظ يقصد بها - بالدرجة الأولى - القارئ العربي حين تعترضه كلمة صعبة أو غريبة لا يفقه معناها. أمّا معاجم المعاني فمقصود بها الكتاب والمنشئون والمترجمون هؤلاء الذين يحضرهم المعنى ويكونون في حاجة إلى لفظٍ يعبر عنه ". (27)

ورغم هذا الرّخم المعرفي في التأليف المعجمي، فقد عدّدت النّقائص فيها من معاصريها أنفسهم، فنرى المعجمي ابن منظور في معجمه المعروف (لسان العرب) محدداً موقفه من المعاجم التي سبقته ليعيدنا إلى الإشكالية التي يواجهها المعجم اليوم، يقول في ذلك: " ورأيت علماءها بين رجّلين: أمّا من أحسن جمعه فإنّه لم يحسن وضعه. و أمّا من أجاد وضعه فإنّه لم يجد جمعه. فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع. ولا نفعت إجادة الوضع مع رواءة الجمع ". (28)

يلقّ الباحث " محمّد رشاد الحمزاوي " على هذا القول مبيّناً: " إنّ الإشكالية التي يطرحها ابن منظور الإفريقي تُكوّن قضية نظريةً أساسيةً قديمةً حديثةً وتكاد تكون أزليةً، وهي من أمّهات الإشكاليات التي تواجهها كلّ اللّغات، فهو يوحى إلينا بأننا أمام قضيةٍ تنتسب إلى اللّسانيات الحديثة، وتستوجب قانوناً لسانياً عامّاً يوفّق بين عنصري معادلتها الصّعبة المتمثّلين في الجمع والوضع، وما لهما من قضايا نظريةٍ متنوّعة. و يؤسّس بالتالي لوضع معجم نموذجٍ عليه أن يحيط، ما أمكن، بالخطاب الإنساني في الزّمان والمكان، دون إسقاطٍ ولا إهمالٍ ولا تكرارٍ، بالاعتماد على منهجياتٍ و تقنياتٍ توفّر ببسرٍ كلّ المعلومات اللّغوية والأدبية والمعرفية العامّة والخاصّة، على اعتبار أنّ المعجم... يمثل، في الذّهن العامّة، خزانة اللّغة والآداب والعلوم وأداتها الطّبيعة التي تحلّ الألغاز، وتوفّر الأجوبة عن كلّ الأسئلة المطروحة ". (29)

إنّ الباحث يحاول أن يؤكّد على خطورة المعنى في العمل المعجمي، ويُستنتج من كلام ابن منظور من أنّه يجب التّوفيق في أثناء إعداد المعجم بين عنصري الجمع المتمثّل في محتوى المعجم والوضع المتمثّل في نظام التّرتيب، وعليه فإنّ من سلبيات المعاجم عدم الإحاطة بالعنصرين السّابق ذكرهما، وهذا يرجع لطبيعة المعجم في حدّ ذاته، ولعلّ هذه النّقائص التي أثبتّها ابن منظور في قوله السّابق نابعة بالأساس من عدم الإحاطة باللّغة إحاطةً كاملةً، فقد رأينا جلّ المعاجم العربية تتخيّر القبائل العربية التي تأخذ عنها وتضع شروطاً لذلك.

ولئن كان الوضع في المعاجم التّراثية العربية قد اختلف فيه باختلاف التوجّهات (الصّوتية، الأبنيّة، الألفبائية حسب أوائل الكلمات وأواخرها ومعاجم المعاني)، فإنّه لم يحضّ بالمناقشة الحادّة كما حدث للجمع، وهذا نابع بطبيعة الحال من تصوّر معاني الكلمات التي تحملها في المعجم، ولذلك يرى الباحثون والمختصّون في هذا المجال أنّ المعرفة هي الأداة الأولى للمعجمي كي يحقّق المعادلة بين عنصري الجمع والوضع، يقول الباحث "

عبد السلام المسدي " في ذلك: " للمعنى في حياة الإنسان من الأهمية ما لا يدركه الناس عادةً إلا متى تسلّحوا بمعرفةٍ خاصّةٍ، وتتركّز هذه الأهمية على الطرق التي يسلكها الإنسان لاستقبال المعنى، وعلى السبيل التي ينتهجها في إدراك عناصر المعنى، ثم على الأدوات التي يتوسّل بها في تأويل مقاصد المعنى، وتتركّز أخيراً على المسالك التي يتوخّاها لتقديم ثمرة استفادته من المعنى ". (30)

وعلى هذا فإنّ افتقاد شرطٍ واحدٍ من شروط المعرفة قد يخلّ بتحقيق تلك المعادلة والوصول إلى المعجم النموذج؛ ذلك أنّ هذا الأخير مرتبط بأفراد المجتمع الذين يوزعون المفردات حسب توزّعهم في المجتمع، وهذا ما جعل الباحث " تمام حسّان " يبعده عن مفهوم النظام، يقول موضحاً: " وإذا لم يكن المعجم كما رأينا نظاماً من أنظمة اللّغة لأنّه لا تتوافر له مقومات النظام فلا بدّ أن يكون منهج المعجم متّجهاً إلى دراسة قائمة من الكلمات تشتمل على جميع ما يستعمله المجتمع اللّغوي من مفرداتٍ. ومن طبيعة هذه القائمة الضخمة التي هي في حوزة المجتمع في عمومه ألاّ يحيط بها فردٌ واحدٌ من أفراد هذا المجتمع مهما بلغ حرصه على استقصائها لأنّ ظاهرتي الارتجال والتّوليد وهما مستمرتان لا بدّ أن تتقفا به دون الإحاطة بالكلمات المرتجلة والمولدة التي هي في طريقها إلى الشّيع العرفي. و لكنّ أفراد المجتمع يتوزعون مفردات هذه القائمة فيما بينهم كلّ بحسب بيئته وثقافته وحياته الاجتماعية فيستقلّ كلّ فردٍ بطائفةٍ منها يعرف معانيها معرفةً عامّةً ويعرف ما لبعض هذه المعاني من ظلالٍ دقيقةٍ مختلفةٍ... ". (31)

كما يصف لنا الباحث " عبد السلام المسدي " الصّراع بين المعنى المعجمي والمعنى الذي يريده القارئ، فيقول: " وإذ أنت تبحث عن معنى يتواءم والسيّاق الذي أنت معه، فشأنك مع اللفظ شأنٌ جديدٌ: أنت ماسك بالمدلول به وهو غير غريب عنك، وأنت قابض على المدلول عليه من أحد أطرافه، ولكنّ بعض أطرافه الأخرى قد أفلتت منك، فهي إذن لحظة مغايرة من لحظات الوعي بانفجار نواة المعنى وتوزّع شظاياها الدّلالية ". (32)

وعلى هذا يؤسّس مقولته المعرفية التي تؤكّد " أنّ البحث في المعنى كما اضطرّ التّوليديون إلى الخوض فيه قد حوّل إطار علم الدّلالة إلى إطار التّدالول في الدّلالة، وهو ما أفرز بعدئذٍ البحث في الخطاب، والخرج المعرفي هنا هو مدى استقامة هذه المثناة مع المثناة الأخرى، وهي اللّغة والكلام. فمما لا شكّ فيه أنّ علم الدّلالة هو قرين المدلول عليه أكثر ممّا هو قرين المدلول به، لذلك فهو أقرب إلى الانتظام في خانة اللّغة. أمّا علم الخطاب فهو قرين المدلول به في لحظة تماهيه مع المدلول عليه، لذلك فهو صنو الكلام... و بالتّالي لم يكن لجوء بعضهم إلى الفصل بين المعنى المعجمي والمعنى السيّاق - تحت مظلة الدّلالة الدّاتية والدّلالة الإيحائية - إلاّ تقيّة من تقيّات المنهج في مباحث الكلام ". (33)

تأثير التغيّر الدّلالي في المعجم:

تعدّ ظاهرة التغيّر الدّلالي من الظواهر الشّائكة التي تؤثر في اللّغة تأثيراً كبيراً، ممّا يجعل كلّ أمةٍ تحاور لغتها وفق الظّرف الذي تعيش فيه، " فكلّ لسانٍ مع الزّمن قصّة هي قصّته التي يفسّرها التّاريخ، وهي التي يتّضح التّاريخ بها، إنّها قصّته التي تبدأ معه يوم يتسمّى باسمه، وتنتهي يوم ينسلخ فيستحيل ألسنة شتّى ". (34)

" وقد عرّف هامبولدت *Humboldt* اللّغة بأنها ظاهرة متحوّلة *Dynamic* وليست ثابتة *Ergon*، وأصرّ على أنّ المظهر الثّابت للّغة ظاهري فحسب. وأولى اهتماماً خاصّاً لارتباط اللّغة بالفكر: فالنشاط الدّهني يجاهد بالضرورة لكي يتوحّد بظاهرة الصّوت (أي الكلام) وبدون اتّحاد الفكرة والأصوات لا يمكن لعالم الصّور أن ينفذ إلى عالم الأفكار، وهذا يعني انعدام التّفكير السّليم". (35) بل ويرى أنّ " قضية العلاقات بين بنية اللّغة والعقلية القومية تحتلّ مكاناً أساسياً في نظريته اللّسانية، فاللّغة هي (نتاج متميّز لروح أمّة بعينها)، والتّعبير الخارجي عن (البنية الدّاخلية) يميّط اللّثام عن رؤية خاصّة للعالم... ومن هنا سمّيت نظريته (رؤية العالم)". (36)

ولذا فإنّ أيّ تغيير في اللّغة يؤثّر في العمل المعجمي إن إيجاباً وإن سلباً، و يرى ستيفن أولمان " أنّ التغيّرات التي تصيب اللّغة - مهما اختلفت في طبيعتها أو سرعتها ومجالها - تسير وفقاً لقاعدة أساسية واحدة، هي أنّها دائماً وأبداً تقع على مرحلتين. المرحلة الأولى مرحلة التغيّر نفسه أو الابتداع والتّجديد *innovation* ويظهر هذا الابتداع في الكلام الفعلي *speech*، وهو لذلك عمل فردي كالكلام نفسه ولكن هذا لا يعني أنّه مقصور على فرد واحد، فقد يتصادف أن يتفق أفراد لا حصر لهم على الابتداع في وقت واحد، بل قد يحسّ عدد آخر من الجماعة اللّغوية المعيّنة بأنّ هذا الابتداع كان حاضراً بأذهانهم، وكان في استطاعتهم أن يبدعوا وربما فعلوا. هذا القبول الاختياري وهذا الاتفاق الانبعاثي عاملان أساسيان في المرحلة الثّانية وهي مرحلة انتشار التغيّر *disseminations* فإذا ما سُمع الشّيء المبتدع في عبارة، أو في عبارات - كما هو الأغلب الأعمّ - علق بالذهن، وترتّب على ذلك استعمال الآخرين له ونفذ بالتدرّج إلى نظام اللّغة. وفي حالة الكلمات ومعانيها الجديدة يأتي الاعتراف متأخراً بعض الوقت، ويكون ذلك بطريق تسجيلها بالمعجم. وهكذا نرى أنّ المرحلة الأولى فردية *Individual* والثّانية اجتماعية *Social* معتمدة في أساسها على قوّة التقليد. هذا التقليد ربّما يكون مقصوراً على المتكلّمين البالغين، ولكن يجب ألاّ ننسى الدور الذي تقوم به الأجيال القادمة في عملية التّجديد اللّغوي. فهذه الأجيال حين اكتسابها للغاتها القومية تتعرّض لاحتمالات سوء الفهم، وتغيير القواعد والنّظم الثّابتة، أو الانحراف عنها. إنّ اللّغة تنتقل من جيل إلى آخر على فترات تتخلّلها تغيّرات وانحرافات دائمة وهذه الحقيقة ذاتها تؤدّي إلى المرونة في الاستعمال اللّغوي، وإلى عدم ثبات الظواهر اللّغوية أكثر من أيّ عامل آخر". (37)

وعلى هذا يرى أو يتفق جلّ الباحثين أنّه " ليس المقصود بالأصل الحقيقي للدّلالة هو الأصل الأوّل لوضع اللّغة في طور نشأتها، والأمر - كما يبدو - أقرب منالاً، فالناظر في أحد المعاجم يجد أنّ أحد المعاني يفهم عن طريق الحقيقة العرفية المستندة إلى شيوع الاستعمال في مراحل زمنية قديمة من تاريخ اللّغة، على حين يجد بقيّتها مجازاتٍ عن هذه الحقيقة... فالواضع يضع اللفظ لمعنى يجري به الاستعمال، فتكون دلّالته على هذا المعنى من باب الحقيقة، وهو غالباً ما يكون حسياً. ولكنّ اللّغة أضيق في مجالها اللفظي من حقول الأفكار، والأخيلة، ومن هنا تصبح المعاني العرفية الحقيقية للألفاظ قاصرة عن الوفاء لمطالب التّعبير اللّغوي وفي مجال الأفكار المجردة (الذهنية) والصّور والظلال بوجه خاصّ، و لهذا فإنّ التّعبير اللّغوي يصبح بحاجة إلى جواز الحقيقة العرفية إلى استعمال آخر يسمّى المجاز". (38)

ومن هنا جاءت الدعوة الصريحة لوضع معجم تاريخي للعربية يحاول، قدر ما استطاع، أن يحفظ مفردات اللغة في عصر معين، ويرى الباحث " إبراهيم السامرائي "، " أن (المعجم التاريخي) يجب أن يكون قائماً على العناية بالأصول، ثم الفروع عن هذه الأصول. وهذا يعني أنه يسرد المسيرة التاريخية منذ نشأتها بل ولادتها إلى نهايتها. ولا نريد بـ(النهاية) الموت والفناء، وإن يكن هذا من الأمور الحاصلة في جمهرة من الألفاظ التي عفا عليها الزمن، أو قل قد انتفت الحاجة إليها... ومن هنا كانت الكلمة **محكومةً بحاجات** ما تتي تزداد يوماً بعد يوم... على أن هذا الجديد من الحاجات لا يخلق من اللفظ شيئاً من عدم، بل إن المعربين يكونون مسوقين إلى البحث عما لديهم من اللفظ فيعملون فيه النظر حتى يكون لهم الجديد في الأبنية التي عرفوها في العربية. ولنا أن نقول إن (المعجم التاريخي) في ضبطه لأفراد اللغة لا يكون محكوماً بل ساعياً إلى البحث عن الصواب والخطأ... " (39) ورغم أن الباحث تصور المعجم التاريخي في معياريته إلا أن المعجم الذي نقصده هنا هو المعجم الذي يبحث في الدلالات دون أن يحكم عليها بالصواب والخطأ.

وعلى هذا الأساس استند كثير من علماء اللغة في انتقاء الأدوات الإجرائية لتصنيف المعجم، ومن هنا يرى فيشر " أن الأسس التي ينبغي مراعاتها في إعداد المعجم التاريخي هي:

- 1- الناحية التاريخية *Historical*: لا بدّ من تقييد الكلمات التي وصلت إلينا، مع بعض الشواهد، و نسبة كلّ شاهدٍ إلى صاحبه، ملتزمين الناحية التاريخية؛ بحيث نرى متى ظهرت الكلمة، ثم آخر تطوّر وصلت إليه، وهل لاقت موتاً في الزمن القديم أو الحديث، أو اندثر معنى من معانيها، واستعُض عنه بمرادف.
- 2- الناحية الاشتقاقية *Etymological*: وتختصّ ببحث أصل الكلمة ونسبها...
- 3- الناحية التصريفية *Flexional*: وتختصّ بتصريف الأفعال والأسماء وغيرها...
- 4- الناحية التعبيرية *Semasiological*: وهدفها تحقيق معنى الكلمة أو معانيها، وفي حالة وجود معانٍ كثيرة ترتب هذه المعاني على حسب علاقتها التاريخية والعقلية؛ كما يجب تقديم المعنى العام على المعنى الخاص، والمعنى الحسي على المعنى العقلي، والمعنى الحقيقي على المعنى المجازي...
- 5- الناحية النحوية *Syntactical*: ومن شأنها تناول جميع الصلّات القويّة التي يمكن أن تربط كلمة بأخرى، وترتيب الكلام في السياق، و غيرها من النواحي النحوية.
- 6- الناحية البيانية *Pharseological*: وتختصّ ببعض العلاقات التي استشعر منها أنها لازمة للكلمة على الدوام...

- 7- الناحية الأسلوبية *Stylistic*: تحدّد المحيط اللغوي الذي تستعمل فيه الكلمة أو التعبير أو التركيب استعمالاً عاماً أو خاصاً " (40)

أما الباحث " عبد السلام المسدي " فيقترح منهجاً آخر في التعامل مع العمل المعجمي، هو البعد التكويني كما يحلو له أن يسميه، يقول: " إن ما نثيره هنا ليس وجهة من البحث التاريخي كما عهده الدارسون، فليس الأمر على تاريخ اللغة بحيث يكون المنهج في وصفها منهجاً زمانياً تعاقبياً بالمعنى الدياكروني كما صاغه سوسير و بلوره ليقابل بينه وبين المنهج الآني التزامني الذي يمثل " السنكرونية " في مصطلحاته. إن الذي

نصوغه محاولين تأسيسه على قواعد معرفية جديدة هو بحث في نشوء اللغة يتصل بالبعد التكويني، وهو غير البعد التاريخي وغير البعد الحيني الزاكن. ثم هو لا يتصل بالبحث في أصل اللغة بعد استتطاق فجر التاريخ وبدايات الخلق ومنطلق الكلمة الأولى... إننا نريد أن ننظر في تاريخية العلاقة الكائنة بين هيئة اللغات وهي تتبدل وهيئة العقل كما تتشكل لدى الإنسان عند استيعاب اللغة واستخدامها، بل نريد على وجه التحديد الدقيق أن نتساءل إن كان انتقال الإنسان من لغة إعرابية إلى لغة غير إعرابية مرتبطاً بتحول معين في طاقات السيطرة الذهنية وملكات الإدراك الخالص". (41)

وهكذا تتضح معالم المقاربة التي يريدها الباحث، فهي أشد التصاقاً بالمحيط الذي نشأت فيه اللغة، بل الطاقات والملكات التي تحدث عنها الباحث ليست ملكات وطاقات لسانية فحسب، بل هي ملكات تداولية أيضاً؛ ذلك أن المعجمي لا تكفيه المعرفة الدقيقة بقوانين اللغة إذا كان لا يعرف خبايا الكلام.

ويعدُّ الباحث "مصطفى صادق الرافعي" مصطلح الغريب نابعاً من الجهاز المفاهيمي للتطور الدلالي الذي تم ذكره سابقاً، ويرى، عكس ما يراه البعض "... أن اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل؛ بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس... ومنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة، أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب: كالظلم، والكفر، والإيمان، ونحوها مما نُقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثة...". (42)

المفهوم الاجتماعي للغة وتأثيره في المعجم:

يعدُّ ظهور فكرة القيمة *Valeur* في نظرية سوسير اللسانية فتحاً منهجياً لعلماء اللغة الاجتماعيين *Socio-linguistes*، حيث أضحت مفهوم اجتماعية معنى الكلمة من أهم أدوات التحليل اللغوي، "فمفهوم الدلالة *Signification* ليس بسيطاً. فالكلمة، سواء أكانت حسية أم ذهنية، لها دائماً قيمة مجتمعية قد تكون عقلية أو عاطفية. وبهذا الجانب من الدلالة على الخصوص تهتم المعجمية. لكن الكلمة ليست منعزلة داخل وعينا، فهي تقيم مع مجاورتها في السياق علاقات نظامية... والكلمة، بعيداً عن السياق، ترتبط داخل الوعي بكلمات أخرى مشابهة لها في الشكل أو المعنى، وتلك هي العلاقات الترابطية. ويمكن أن نضيف إلى هذه العلاقات التي لها على الخصوص جانب ثقافي، وأحياناً عاطفي، روابط ذاتية خالصة". (43) "والكلمة سوف تتيح للتصور أن يتجاوز المستوى الفردي والعاطفي: فهي تُعقلُ الفكر وترتبه وتميزه وتعممه وتعمل على تجريده...". (44)

ويعتقد المتخصصون في مجال المعجمية أن اللغة، بهذا الشكل، تنتظم في حقول دلالية، يمثل كل حقل تصور أفراد المجتمع للغتهم، ويرى الباحث "عبد القادر الفاسي الفهري" أن كل لغة تنتظم في حقول دلالية، وكل حقل دلالي له جانبان: حقل تصوري *Conceptual field* وحقل معجمي *Lexical field*. ومدلول الكلمة مرتبط بالكيفية التي تعمل بها مع كلمات أخرى في نفس الحقل المعجمي لتغطية أو تمثيل الحقل الدلالي. وتكون كلمتان في نفس الحقل الدلالي إذا أدى تحليلها إلى عناصر تصورية مشتركة... كما يبدو أنه يجب التفريق بين نوعين من المفاهيم: مفاهيم مركزية بالنسبة للحقول الدلالية، مفاهيم مثل اللون... ومفاهيم تزودنا بالبنية الداخلية لهذه الحقول، كالفضاء...". (45)

وعلى هذا الأساس فقد رأى البعض أن ضيق اللغة أو اتساعها يرجع بالدرجة الأولى لاستعمال أفراد المجتمع لهذه اللغة، وعليه تستوي المعاجم من حيث الجمع و الوضع، " فالجماعة ترسم حدوداً للاستعمالات اللغوية ذات البعد الاجتماعي، حدوداً تتسع وتضيق باتساع مفهوم تلك الجماعة أو ضيقه، لطبيعة العقد الاجتماعي الذي يحدّد علاقة الفرد بالمجتمع. ويختلف الأفراد بعضهم عن بعض في هذه الاستعمالات، بالمقدار الذي حصلوه من فهمهم لطبيعة تلك العلاقة. فلا يكون الأفراد كلّهم نسخة واحدة، بل يتفاوتون بحسب موقعهم من الفهم، وحظّهم من التّربية التي هي قوام السلوك، بمقتضى العقد الاجتماعي للأمة، ولذلك تجد أفراداً صارمين في إقامة العلاقات على أسس يرونها سليمة". (46)

" ففي كلّ عصرٍ تضيق معانٍ وتتوسّع أخرى، و تنتوّع دلالات وتختفي كلمات. فالكلمات تتجاذبها ظواهر وأسباب مختلفة، فيحدث في أبنيتها مدّ وجزر. ينسحب على المعاني و يخضع إلى انعكاسات الفكر، ويستجيب للغة؛ تلك اللغة التي يزداد ثراؤها أو يقلّ طبقاً للأوضاع النفسية والاجتماعية المتعدّدة. ومن هذا التعدّد تضییء إشعاعات الفكر في مرآة اللغة، و تتجسّد علاقة الفكر واللغة بالبيئة... تترك البيئة آثارها الواضحة في اللغة والفكر. وفي الوقت نفسه تنعكس هذه الآثار على الفرد والمجتمع. فالعلاقة بينهما علاقة جدلية. وفي ظلّ تلك الجدلية الفكرية اللغوية تتجسّد روح التّزاوج بين المعاني والكلمات في ثنائية متجانسة. وانطلاقاً من تلك الثنائية المتزاوجة، فإنّ بيئة الفرد تلقي ما يدور في الفكر اللغوي في صورٍ لفظيةٍ و معانٍ تزدهم في المعجم وتتكاثر في المحيط. وفي المحيط تنصهر المادّة اللغوية لتتشكّل في المعجمات، وتصير آيةً في الاستعمال... " (47)، ولذلك نرى المحدثين اللغويين " يشبهون حال اللغة، كما تبدو الآن بتلك الطبقة العليا من القشرة الأرضية، تحتها طبقات تمثّل كلّ منها عنصراً من عصور التّاريخ وقد أسّس بعضها على بعض. وكذلك حال اللغة في العصور تطوّرها تتكوّن في هيئة طبقات بعضها فوق بعض، و مؤسّس بعضها على بعض؛ فاللغة حين تحلّ بيئة من البيئات وتستقرّ فيها تأخذ شكلاً جديداً تستمدّ جذوره ممّا سبقها من اللّغات في البيئة نفسها". (48)

وتصرّ المدرسة اللسانية الاجتماعية على التأثيرات التاريخية في اللغة، كما تؤكّد على تاريخية الكلمة بشكلٍ كبير، يقول جورج ماطوري أحد رواد هذه المدرسة: " لا ينبغي في المعجمية أن يكون الإنسان غافلاً عن أوجه التشابه أو الاختلاف الخارجية للعناصر. وكما أنّ أنظمة المعادلات النّفاضلية تستطيع أن تقدّم أنواعاً من علاقات القرى المختلفة في شكلها الخارجي، فإنّ الحقل المعجمي يمكن أن يشتمل على كلمات تبدو للوهلة الأولى و كأنّ ليس بينها شيء مشترك. إنّ القرابة الاجتماعية للعناصر هي وحدها التي تهّم. ولكنّ هذه القرابة لا يمكن إقامتها إلّا بعد أن تكون الحقبة قد تمّت دراستها، أي بعد عمليات جرد مهمّة". (49) " إنّ الذي يرسم ملامح الكلمة - وفق هذا التّصور - ليس هو فقط قيمتها في حال سكونها واستقرارها وثباتها داخل مجموعتها، ولكن هو أيضاً أن تعبّر عن حركية ودينامية. ولذلك فمن المستحيل تجرّدها من عامل الزّمن. إنّ الكلمة لها ماضٍ". (50)

وعليه يقترح جورج ماطوري لتحقيق معادلة المعجم التّموذج مصطلحين هما الكلمة الشّاهدة والكلمة المفتاح، يقول: " **فالكلمة الشّاهدة** تقوم بإدخال مفهوم **القيمة**، ويمكن القول مفهوم **الوزن** (*Notion de poids*)، إلى ميدان المفردات. إنّ **الكلمة الشّاهدة** هي الرّمز المادّي للعمل الرّوحي المهمّ. فهو يمثّل في الوقت الواحد العنصر التّعبيري والعنصر الملموس الذي يجسّد عملاً من الأعمال الحضارية ". (51) ويتساءل الباحث نفسه قائلاً: " كيف نحدّد الكلمات الشّاهدة داخل الحقل المفهومي؟ إنّ ذلك لا يتمّ إلّا حين نحدّد بصورة كافية الحقة التي ينتمي إليها الحقل. إنّ الكلمات الشّديدة الأهميّة قد تكون أحياناً هي تلك الكلمات التي نحكم لأوّل وهلة بتقاهة قيمتها... ". (52) ويضيف موضحاً المسار المعرفي للمفهوم: " لقد رأينا إذن أنّ الذي يرسم ملامح **الكلمة الشّاهدة** ليس هو فقط قيمتها السّكونية داخل مجموعتها، ولكن هو أيضاً أن تعبّر عن ديناميّة: **فالكلمة الشّاهدة** هي رمز التّغيير. وبهذا يعود مفهوم المدّة ليدخل من جديد في المعجمية السّكونية والوصفية ". (53)

وإذا كانت " الكلمات الشّاهدة التي بها ينتظم تسلسل المفردات داخل الحقل المفهومي كثيرة جداً لدرجة أنّه لا يمكن أن تكون هي العناصر الأساسية للمعجم؛ فعلياً أن نبذل جهداً منهجياً يسعى لتوحيد المتفرّق من الظواهر. من أجل هذا نقترح تصنيف مجموع الكلمات المكوّنة للحقول المفهومية (بما فيها الكلمات الشّاهدة) منطلقين من مفهوم له طبيعة اجتماعية ويعبّر بشكل إجمالي عن الحقة المدروسة... سنعطي للوحدة المعجمية المعبّرة عن مجتمع معيّن اسم: **الكلمة - المفتاح**، فالكلمة المفتاح لن تدلّ إذن على معنى تجريدي أو وسيلة أو مادة، ولكن على كائن أو إحساس أو فكرة ممّا يعيش بطريقة تجعل المجتمع يجد فيه نموذجاً ومثاله ". (54)

وعلى هذا المفهوم يتأسّس مصطلح سدّ الثّغرات في المعجم، فقد ساد أنّ المعجم غير كافٍ لتفسير اللّغة، فهو يسعى لجمع الأصول فقط، لكننا أغفلنا أنّ تلك الأعمال التي حاولت أن تسدّ الثّغرات ما هي إلّا تلك الأعمال المنسوبة للهيّات والمجامع اللّغوية فحسب، يقول الباحث " عبد القادر الفاسي الفهري " موضحاً المسألة: " وما سمّي سدّ الثّغرات في اللّغة غالباً ما يكون سدّاً للثّغرات في الثّقافة، فلا ننتظر أن نجد في أيّة لغة من اللّغات مقابلات لمفاهيم جديدة أحدثت في قطاع معرفي معيّن بلغة مغايرة. فمتى دعت الحاجة في ثقافة معيّنة إلى جلب نوع من المعرفة أمكن طرح المشكل اللّغوي وحلّه... وسدّ الثّغرات الجزئية أو إعادة النّظر في الحقل هو عملية عادية تدخل في الحركية الدّائمة للمعجم، ولا يمكن أن تضبطها الهيّات اللّغوية، ما يمكن أن تقوم به الهيّات هو اقتراح إعادة تنظيم للحقل أو للمعجم يثبت أو يسقط جزئياً أو كلياً ". (55)

ووفقاً لهذا المفهوم المتغيّر للغة تقوم المجامع اللّغوية بإضافة ما يمكن إضافته للغة وفق رؤية ثقافية معيّنة، وهذا العمل مؤقت، لأنّها مجرد اقتراحات قد تتوافق ورؤية أفراد المجتمع وقد تختلف عمّا يتصوّرونه، وعليه فإنّ اللّغة كما تسير تاريخياً، علينا أيضاً أن ننبّه إلى أنّ التّفسير الآني للغة يدخل ضمن اهتمامات المعجم التّموذج.

علاقة الكلام الفعلي *Speech act* بالمعجم:

إنَّ أوَّل ما يشدُّ انتباهنا، ونحن نحاول البحث عن التوازن في المعجم فيما يخصّ المعادلة السابقة، هو تلك العلاقة الوطيدة بين الصّوت والمعنى، حتّى إنَّك لتشاهد الرّجل يتخيّر أصواتاً بعينها لمعنى بعينه، ولذلك لم يترك علماء العربية القدامى عامّةً والمعجميون خاصّةً شيئاً ممّا ذكروه عن هذا الالتحام والتّوافق الشّديد بين عنصري الصّوت والمعنى " ولقد سبق للغويين العرب، ولا سيما المعجميين منهم أن تنبّهوا إلى طبيعة الوحدة المعجمية، (56) باعتبارها مسألةً خلافيةً بينهم، فلقد اهتمّ بها الخليل اهتماماً خاصّاً في مقدّمة كتاب العين؛ باعتبارها ركنَ المعجم وجوهره... "، (57) ومن هنا عُدت المعجمية الحديثة منفصلةً عن علم الدّلالة باعتبار أنّها تهتمّ بالشقّ الأوّل، ورغم ذلك لا يمكن عدّ هذا الانفصال حلول المعجمية محلّ علم الدّلالة، بل هو انفصال منهجي. (58)

ولقد " اعتبر علماء العربية الرّموز الصّوتية أصغر وحدة ذات معنى، وهذا المفهوم له أهمّيته، إذ ما كلّ منطوق لغة، وما كلّ مفهوم كلام؛ أي أنّ الأصوات لا تكفي وحدها لتشكيل الكلمة وإعطائها دلالاتها، ولا الدّلالة وحدها تكفي لتقوم بهذا الدور. إنّ الذي يعطي للكلمة دلالتها هو إجماع المتكلّمين واتّفاقهم على إعطائها معنىً معيّناً، هذا المعنى يشار إليه بصيغة صوتية معيّنة ذات قوانين محدّدة... " (59) وجوهر هذه المفاهيم كلّها قول الجاحظ المانع الجامع لكلّ ما ذكر عن الالتحام، يقول: " الصّوت هو آلة اللفظ وهو الجوهر الذي يقوم به النّقطيع وبه يوجد التّأليف، ولن يكون الكلام موزوناً ولا منثوراً إلّا بظهور الصّوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلّا بالنّقطيع والتّأليف ". (60)

و " هذا يعني أنّ الكلام يتحدّد بداهةً، بأنّه أصوات متقطّعة ومنظومة في آنٍ، لأنّ مادّة الكلام هي أصوات متقطّعة ولكّنها منظومة على وجهٍ مخصوصٍ في كلّ لغةٍ وهذا التّصوّر يؤدّي إلى أنّ الدّراسة العلمية للكلام تقتضي تحليله من الجزء إلى الكلّ ومن الكلّ إلى الجزء، لأنّ الأصوات المفردة المعزولة، إذا نظمت صارت كلماتٍ والكلمات بما تحمله من دلالاتٍ إذا دخلت في علاقات النّظم صارت جملاً وكلاماً ". (61) وليس أدلّ على ذلك من حضور أوّل معجم في العربية (العين) في الأبحاث؛ ذلك أنّه أحصى المستعمل من المهمل انطلاقاً من ربط الصّوت بالمعنى، وكذلك العمل الذي أسّس له ابن جنّي فيما يخصّ الاشتقاق الأكبر.

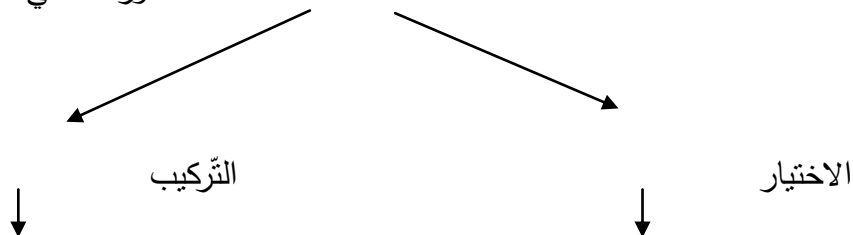
ولئن كانت قضية الصّوت والمعنى تمثّل الجانب الأهمّ في التّأليف المعجمي فإنّها قد غدت مفتاح السّؤال عن المعنى ومرابطه، ولذلك تطرح قضية الجمع والوضع بتعبير ابن منظور في هذا المجال من حيث كفاية المعجم من النّاحية الدّلالية أكثر من ناحية التّرتيب العامّ للمعجم، وعلى هذا يرى جلّ المختصّين أنّ الدّلالة في المعجم لم تُحطْ بالخطاب الإنساني بشكلٍ كافٍ، ويرى الباحث " عبد السّلام المسديّ " وهو يفسّر لنا عدم احتواء المعاجم العربية كلّ الدّلالات التي كانت مستخدمةً آنذاك في الخطابات اللّغوية: " أمران هامّان في هذا السّياق نرى فيهما مرجعيتين تعليليتين لما نحن بصددّه، وكلاهما مترسّخ الحضور في مرابض المعنى الذي هو السّؤال الملتقّ دائماً على كلّ أسئلة اللّغة. أمّا الأوّل فيتمثّل في أنّ علوم اللّسان عند العرب قد طاقت بكلّ مراتب المعرفة المتعلّقة باللّغة سواء في تشكّلها النّوعي الذي هو اللّسان العربي، أو في تجلّياتها الكونية المطلقة بحكم

اتّسع مجالات علم الكلام، ويتمثّل في أنّ المعرفة اللّغوية عندهم قد أمسكت بمقايض البنى التكوينية في مستوى الحرف وفي مستوى الكلمة ثمّ في مستوى التركيب، ولكنهم قد تحاشوا تدوين تاريخ الدلالة فجاءتنا الألفاظ عندهم منزوعةً منها ذاكرتها التي هي سجّل تطورها عبر الزمن. وغنيّ عن الذكر هنا أنّهم لهذا السبب قد قصروا مفهوم المولّد على ما كان استحداثاً للدوال بما تحمله معها من مدلولات، أمّا إذا تولّد مدلول وانزاع في حنايا لفظ قائم فليس هو بمندرج عندهم في باب المولّد. ومن طريف ما حدث في تاريخ الحضارات المقارن أنّ العربي قد أحكم علوم المعاجم و أتقن صناعتها إتقاناً ولكنّ تقييد مراسم المعنى في ضبط مادّة اللّغة قد كان يتم خارج هاجس التوثيق الزمني. كانت الدلالة - في الوعي واللاوعي - شيئاً منسرحاً من التاريخ و منفلتاً من قيود التعاقب الذي يمليه، لذلك ترى عمل المدوّنين للغة قائماً على مبدأ إرجاع اللاحق إلى السابق وتفسير الطارئ بالثابت، وعلى مبدأ التعامل مع المعنى المتولّد على أنّه فرع يتعيّن ربطه بالأصل لأنّه عرض، والعرض مقيد بالجوهر. وهذا ما يفسّر كيف خلت أمّهات المعاجم التي هي مصادر اللّغة من رصد الدلالات المتولّدة في كلّ مجالات الاستعمال اللّغوي... وأمّا الأمر الثاني الذي يقمّ لنا المرجعية التفسيرية لما أسلفناه فيتمثّل في أنّ اللّغة العربية... تتوفّر على آليات في إنتاج الدلالة لا تضاهيها آليات الألسنة غير الإعرابية كالفرنسية والإنجليزية، وبناءً على ذلك يكون " النحو " بمجمله مختلفاً في إجراءاته بين اللّغة العربية والألسنة الأخرى: الجهاز النحوي في اللّغة الإعرابية إيذان بخروج المعجم إلى التداول وحلول المفرد في السياق لأنّه كشف للقرائن القائمة بين الألفاظ من داخل أبنية الألفاظ ذاتها...". (62)

إذا المرجعيتان التعليليتان اللذان قدّمهما الباحث تتعلّقان بالمستويين الاختياري والتركيب، وعلى ذلك فإنّ التعليل الأوّل المرتبط بالاختيار يفسّره الباحث على أنّه مرتبط بالإجراء الذي قدّمه علماء العربية القدامى، حيث إنّهم كانوا يبحثون في التداول من اللّغة؛ و لذلك تغاضوا عن التّاريخ للدلالة واكتفوا بإرجاء المعنى الثاني إلى الأصل، وعلى هذا يوظّف الباحث نفسه مصطلح التّناسخ والتّحويل بدلاً من مفهوم المخزون اللّغوي، يقول موضحاً: " وهكذا لا يمكن الجزم البتّة بأنّ قاموس اللّغة يحوي كلّ رصيدها الاستبدالي وبالتالي فإنّ جدول الاختيار في عملية الكلام لا يتحدّد بما هو موجود في مخزون اللّغة بالوضع الأوّل وإنّما يتّسع إلى ما يستخرج - بالتّحويل والتّناسخ - من أوضاع معجمية جديدة ونماذج دلالية مستحدثة انطلاقاً من قائمة البتّ الفعلي في الرّصيد المعجمي لتلك اللّغة. والذي نستشفّه ليس إلّا دالاً لسانياً يحيلنا على مدلول له ومرجع، غير أنّ فحص القضية التي نحن بصددّها يُفضي إلى اعتبار أنّ الصّبغة الاعتبارية تزول آلياً بمجرد الخروج من الرّصيد الأوّل إلى الرّصيد المنتحل منه...". (63) ويمكن أن نلخّص ذلك في الخطاطة التّالية:

التطور الدلالي

2





غير أنه يجب ألا نغفل التغيّر المقصود، الذي يدخل في باب علم المصطلح، " فالدلالة تتغيّر من جيلٍ لآخر ومن مكانٍ وزمانٍ لزمانٍ آخرين أيضاً وهذا التطوّر الدلالي، قد يكون مقصوداً، كما يكون غير مقصودٍ أيضاً، فالمقصود يولّد على أيدي المعنيين في ذلك، كالمجامع اللغوية، أو صنّاع الكلام، وغير المقصود، هو الذي يوجد و لا يفطن إليه إلا بعد مدّة نتيجة المقارنة بين عصور اللّغة المختلفة... ". (64)

ولم يكن علماء العربية غير المعجميين ببعيدين عن هذا المجال، فقد صرّحوا به في غير مرّة في مؤلّفاتهم، فهذا الجاحظ يرى أنّ لكلّ طائفةٍ معجمٍ خاصٍّ يتعاملون به ومن لا يعرف نوعية هذا المعجم لا يعرف كيف يتواصل معهم، وهكذا يكون " أبو عثمان قد أوضح أنّ لكلّ طائفةٍ من النّاس مجموعةً من الألفاظ تهتمّ بها أكثر من غيرها، فتدور في كلامها؛ بسبب كثرة حاجتهم لها، وقربها من قلوبهم، والتصاقها بطبائعهم... ". (65) " ومراعاته للمقامات ولاسيما المقام الخطابي أدّت به إلى مقياس آخر دقّق به وجه تأدية اللفظ المعنى، وقوامه تزامن بلوغ الدّال إلى السّمع والمدلول إلى القلب أو العقل ضماناً لقدرة السّامع على متابعة المتكلّم وتجنّباً لكلّ قطيعةٍ دلاليةٍ ينخرم من أجلها حبل التّواصل فتتعطّل وظيفة الكلام... ". (66) " وانطلاقاً من هذا التّصوّر للمعجم اللّغوي يتسنّى للباحث أن يفهم - مثلاً - حملته العنيفة على الغريب وعلى من يتشبّهون بالبدو الجفاة في استخدام ألفاظٍ يُستغلق معناها على السّامع فلا يصل إلى إدراك دلالتها لأنّها أجنبية عن عاداته اللّغوية وعن الرّصيد المشترك الذي يصرفه النّاس بينهم... ". (67)

واللّغة كما رأينا سابقاً تنتزّل في إطار هذا المفهوم المعجمي المرتبط بالبيئة، " وهو - أي الجاحظ - بهذا التّصوّر لماهية اللّغة ونظامها ووظيفتها، يستعدّ للدّخول إلى عالم اللّغة الواسع وخاصّةً في حقلين أساسين من حقول دراسة اللّغة، أولهما الاستخدام الفنّي للّغة كما تبدو في مجالات الأدب من شعرٍ ونثرٍ وخطابةٍ وثانيهما استخدام اللّغة في إطارها الاجتماعي، وصور هذا الاستخدام وتنوّعه. أي بعبارةٍ أخرى دراسته اللّغة في صورتها الفنّية والجمالية الأسلوبية ثمّ دراسة اللّغة كوسيلة اتّصالٍ يوميةٍ في المجتمع، وتنوّع هذا الاستخدام، وذلك، وفق أصلٍ واحدٍ، وهو لكلّ مقامٍ مقالٍ، أي وفق نظرية السّياق الاجتماعي للّغة *context of situation* "، (68) وهذا يشبه إلى حدّ بعيدٍ مفهوم الشّرائح الاجتماعية في علم اللّغة الاجتماعي *Socio-linguistique* " والمقصود منها هنا هو أنّ هنالك مظاهر لغوية خاصّة بشرائح اجتماعية معيّنة تدلّ على تلك الشّرائح دلالةً واضحةً. فمن الممكن تمييز لغة الأطفال عن لغة البالغين، ولغة المتقّفين عن لغة الأمّيين... ". (69)

ووفق هذه الرّؤية التي يقدّمها ينتبه إلى حقيقةٍ مهمّةٍ، هي أحد ركائز المعجم، وهو التّرادف، فلا يقع أبداً نظراً لاختلاف المستويات الاجتماعية في استعمال اللّغة، ويرى الباحث " مازن الوعر " أنّ " الجاحظ قد نبّه إلى حقيقةٍ لسانيةٍ مهمّةٍ وهي وجود بعض المترادفات المختلفة في البنية السّطحية *Surface structure* والتي يظنّ

المرء أنّ لها بنيةً عميقةً واحدةً *Deep structure* ولكنّ الواقع أنّ لهذه المترادفات ذات البنى السطحية الواحدة بنىً عميقةً مختلفةً، وذلك لاختلاف مستوياتها الدلالية العميقة. وهذا يعني أنّ لكل كلمةٍ مترادفةٍ بنيةً سطحيةً، وبنيةً عميقةً". (70)

ويقول الباحث " حمّادي صمود " واصفاً هذا المسار: " إنّ الغاية التي ليس بعدها غاية في دقة استعمال الألفاظ هو القرآن. وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في معرض حديثه عن التطوّرات الدلالية التي تطرأ على الكلمة بحكم ترددها على ألسنة الناس فينحو المتكلّم - ولاسيما إذا كان من طبقة العامّة - إلى استعمالها في غير معناها الدقيق... وكأنّا بالمؤلف يتقنن إلى بابٍ هامٍّ من أبواب التّرادف الناشئ عن اجتثاث الكلمة في سياقها الأصلي واستعمالها في سياقٍ آخر أجنبى عنها فيضمحلّ تبعاً لذلك الفارق المعنوي بينهما وبين الكلمات القريبة من معناها ". (71)

وهذه المواقف تكشف عن معنى المعجم الخاصّ الذي يحصي الاستعمالات الفعلية في اللحظة المعينة، " فلا شكّ في أنّ مجموعة المفردات سوف يكون لها تعبير عن مواقف محدّدة وملموسة إذا وُضعت في سياقها الخاصّ، وعلى هذا يمكن اعتبارها انعكاساً صادقاً للعادات والعرف والأصول الاجتماعية، وكأنّ اللّغة والحياة أصبحتا مظهرين لحقيقةٍ واحدةٍ، وبهذا أيضاً يمكن أن يصبح الأسلوب انعكاساً للفضائل والرذائل، ولخواصّ الامتياز والضعف في أمةٍ بعينها، ويبدو أنّ هناك مفارقةً في نظرة المفكرين للغة تنبع من النظرة الفلسفية للوجود ". (72)

وعليه فإنّ تحقيق المعادلة مرهونٌ بهذه الاستخدامات المختلفة للغة، وهذا ما تتادي به المعجمية الحديثة في مظانها، وخاصةً علماء اللّغة الاجتماعيون، ويسعون من خلال ما ذكرناه إلى التأسيس لمعجم نموذجٍ يسير بخطى تاريخية تصنع من اللّغة حدثاً شاهداً، ووصفية تجعل من اللّغة حدثاً مفتاحاً، ولذلك كان علماء العربية خارج إطار التّأليف المعجمي يسعون قدر ما استطاعوا إلى تحقيق هذه الاستخدامات في معجمهم الذهني الخاصّ، " ويدخل في هذا الصّدّد في مادّة الاستعمال العربي ما يؤثر عن بعض السّلف في فهم معاني بعض الآيات على قوانين استعمالهم، كما روى "مالك" في "الموطأ" عن عروة بن الزبير قال: " قلت لعائشة - وأنا يومئذ حديث السنّ - رأيت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصّفاَ والمَروَةَ مِن شَعايرِ الله فَمَن حَجَّ البَيتَ أو اعتمرَ فلا جُناحَ عليهِ أن يَطوِّفَ بهما ﴾ ****، فما على الرّجل شيءٌ أن لا يطوِّفَ بهما، فقالت عائشة: كلاً لو كان كما تقول، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوِّفَ بهما، إنّما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة الطّاغية، وكانت مناة حذو قُديدٍ، وكانوا يتحرّجون أن يطوِّفوا بين الصّفا والمروة، فلمّا جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية ". (73) " ومن وراء ذلك استعمال العرب المتّبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتركيب بلغائهم... روى أئمة الأدب أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿ أو يَأخذُهم على تَخوُّفٍ ﴾ **** ثمّ قال: ما تقولون فيها ؟ أي في معنى التّخوُّف، فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه لغتنا، التّخوُّف التّنقّص، فقال عمر: و هل تعرف العرب ذلك في كلامها ؟ قال: نعم، قال أبو كبير الهذلي:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَأَمِّكاً قَرْدًا

كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفْنُ

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلّوا، هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم و معاني كلامكم ". (74)

كما روي أنّ " التكلّم في وقتٍ ما عن الإعراب قد صار عيباً والنّطق بالكلام الفصيح عيباً... وعلى ذلك جرت سنّة النّاس في الكلام... حتّى حكى أنّ الفراء مع جلاله قدره وعلوّ رتبته في النّحو دخل يوماً على الرّشيد فتكلّم بكلامٍ لحنٍ فيه، فقال جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين إنّه قد لحن، فقال الرّشيد للفراء أتلحن يا يحيى، فقال يا أمير المؤمنين إنّ طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللّحن فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطّبع لحنّت فاستحسن الرّشيد كلامه... ". (75)

وكلّ هذه النّصوص تدعو ضمناً إلى التّأسيس إلى المعجم النّمودجي أو الخاصّ الذي يحاول ما أمكن أن يحيط بعنصري المعادلة الجمع والوضع الذّين يحقّقان للمعجم وجوده وحضوره ، بل وقبوله من النّاطقين باللّغة التي يتكلّمون بها، خاصّةً إذا تعلّق الأمر بالخطاب النّفعي حيث تعدّ اللّغة أداةً للاتّصال. " فإنّ تصوير النّصّ على أنّه (فعل لسانی) و (عمل لغوي)، ليجعل النّصّ يعيش صراعاً دامياً في لغته ذاتها بين دلالة القصد وصيرورة المعنى، وبين كونه قولاً وكونه تأثيراً، وبين مدلوله الذي يرتبط وجوداً بإرادة خارج اللّغة ودالّه الغيور الذي يأبى أن ينصاع لغير إرادته الذّاتية في إنشاء معناه. وإنّ هذا الصّراع الدّامي، بل الوحشي الذي يمزّق المعنى أشلاءً ويرمي بها فوق النّفايات المعجمية، ويأخذ الدّالّ مسحوراً به ومفتوناً، فيتوه معه في بوادي الارتحال والتّغيّر، ليُخرج اللّغة من مفهومها أداةً إلى مفهوم آخر، تصير اللّغة فيه بانيةً لما تتجزه ومولدةً لما سينجز. وهنا يصبح من الضّروري عدم الخلط بين مفهومين للّغة: الأوّل، ويتلاءم مع طبيعة الخطاب النّفعي، حيث تكون اللّغة فيه أداةً للاتّصال... والثّاني، ويتلاءم مع طبيعة لغة الخطاب الأدبي، حيث تكون اللّغة فيه (إنجاز أعمال)... ". (76)

جماع القول: إنّنا لا نستطيع أن نحكم على المعاجم العربية بالسّلب مباشرةً، فتلك المعاجم مرتبطة بالموضوع الذي تعالجه، كما لا يمكن أن نتناسى أنّ هذه المعاجم نشأت في محاضن انتشار اللّحن ومحاولة التخلّص منه حفاظاً على لغة القرآن الكريم، ثمّ إنّ هذه المعاجم، مهما تعدّدت سلبياتها، قد حفظت مفردات اللّغة العربية في ذلك الوقت حتّى وصلنا منها ما وصلنا، وفي الآن ذاته يمكن القول إنّ هذه المعاجم العربية التّراثية في حاجةٍ إلى دراسةٍ وغربلةٍ متأنّيةٍ تنزع منها الشّوائب وتروّض المعاني الموجودة خلالها، مع التّركيز على تحليل المستعمل من اللّغة ما استطعنا إليه سبيلاً، وذلك سعيّاً لإنجاز معجم نموذجٍ حديثٍ يروم توصيل وحفظ اللّغة على الوجه المتقبّل لدى الجماعة اللّغوية.

هوامش المداخلة:

(1) - منذر عيّاشي، قضايا لسانية وحضارية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1991، ص11.

(2) - عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط1، 1986، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1985، ص ص59، 60. لذلك نجده يحصي أخطاء هؤلاء في اعتقادهم أولاً بأنه لا بدّ من توظيف التراث في بناء نحو يصف اللغة العربية، والتوظيف غير ضروري، وهذا قد يؤدي إلى الخلط بين نسقين مختلفين، وهذا هو الخطأ الثاني، أما الخطأ الثالث فهو الاعتقاد أنّ الآلة الوافسة للغة العربية تحتاج ضرورةً إلى مفاهيم القدماء وأصولهم وهذا ما يخلق نوعاً من اللاتاريخية. انظر على هامش المرجع نفسه، ص ص60، 61.

(3) - عبد الحليم بن عيسى، المصطلح التراثي في الدرس اللساني الحديث، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد5، ماي 2005، ص ص88، 89.

(4) - منذر عياشي، قضايا لسانية و حضارية، ص32. تحدّث الباحث " منذر عياشي "، في قضايا، عن الحاجة إلى منهجية ترتبط بالتطبيق، في بناء النظرية، وذلك بوضعها على محك التجربة، ص 13. كما عدّ الباحث عوائق البحث اللساني العربي في ثلاثة: أولها: تبعية البحث اللغوي العربي للممارسات الاستشرافية والمناهج الغربية، وذلك لعدم امتلاكه نظرية خاصة به مستوحاة من الحضارة، وثانيها: هو حذف العنصر الحضاري من ساحة البحث العلمي، وهذا ما أدّى إلى انقسام في ذهنية الباحث العربي، وثالثها: هي مشكلة المصطلحات التي نتجت عن الإشكاليتين السابقتين. وينظر في تفصيل هذه الإشكالات ص ص14، 19. وتحدّث أيضاً عن المصطلح العربي القديم حين يقول: " قد لا يكون المصطلح العربي القديم قادراً بما فيه الكفاية على نقل المصطلح الغربي أو استيعابه، وليس ذلك لضعف فيه، ولكن لأننا بهذه العملية نجعله يعبر قسراً عن أمرٍ لم يُخلق له ". وقد حتّ الباحث على تجنّب استعمال المصطلحات العربية في مقابل المصطلحات الغربية، ص18.

(5) - أحمد أمين، فجر الإسلام، موفم للنشر، 1989، ص225.

(6) - منذر عياشي، اللسانيات و الدلالة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1991، ص26. يقول الباحث موضعاً موقفه السابق: " البحث اللغوي عند العرب قام على أنّ: النصّ هو الدافع والمحرّك لكلّ الأفكار النظرية التي شكّلت من العمل اللغوي مشروع رؤية، به يُنشئ الإنسان ذاته، و به يقرأها بوصفه كائناً لغوياً، ومن خلاله ينظر إلى العالم ويتعامل معه... ". ينظر، ص 14، 15. بتصرّف.

(7) - عبده الرّاجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ص33.

(8) - المرجع عينه، ص33.

(9) - محمّد النّويري، علم الكلام والنّظرية البلاغية عند العرب، دار محمّد علي الحامي، صفاقس، ط1، 2001، ص7.

(10) - المرجع نفسه، ص63.

(11) - محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، 2003، ص59.

(12) - رمضان عبد التّوّاب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1994، ص111.

* - يقصد هنا قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾. إبراهيم، الآية 4.

(13) - علي محمد حسن العمّاري، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية، أميرة للطباعة، ط1، 1999، ص92.

** - الطحاوي، تخرّيج العقيدة الطحاوية، تح/ محمد ناصر الدين الألباني، ص234. الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ج6، ص173.

(14) - محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص65. رمضان عبد التّواب، فصول في فقه العربية، ص111.

(15) - أحمد فرج الربيعي، مناهج معجمات المعاني إلى نهاية القرن السّادس الهجري، مركز الإسكندرية للكتاب، 2001، ص16.

(16) - المرجع نفسه، ص16.

(17) - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة حجازي، القاهرة، ج1، ص12.

*** - يصنّف الباحث " محمود سليمان ياقوت " الأعراب في خانة المصادر الأساسية التي استلهم منها علماء اللّغة المعاني التي وضعوها للألفاظ، وبالإضافة لذلك، فقد عدّ القرآن أوّل مصدرٍ من مصادر الجمع ثمّ الحياة في شبه الجزيرة العربية، وأخيراً الشّعْر العربي. يراجع، معاجم الموضوعات في ضوء علم اللغة الحديث، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص ص45، 71.

(18) - أحمد فرج الربيعي، مناهج معجمات المعاني، ص19. وعلى هذا فإنّ " اللّغة لم تُجمع دفعةً واحدةً، بل مرّت بمراحل كانت الأولى منها تتمثّل فيما ذكرناه آنفاً من سوّالات الصّحابة والتّابعين عن الألفاظ الغريبة في القرآن والحديث، ومنها السّوالات التي وجّهها نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر وغيرهما إلى عبد الله بن العباس (رضي الله عنهما) ". المرجع نفسه، ص18. وهو المعنى الذي عبّر عنه أيضاً الباحث " حمدان حسين محمّد " حين أكّد أنّ " الرّسائل اللّغوية ذوات الموضوعات المستقلّة لم تنشأ من لا شيء، وإنّما كانت تبعاً للمرحلة الأولى التي تمثّلت في تفسير القرآن الكريم، وظهر هذا مبكراً، وكان عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - في طليعة مفسّري القرآن... ". حمدان حسين محمّد، التّفكير اللّغوي الدّلالي عند علماء العربية المتقدّمين، منشورات كلّية الدّعوة الإسلاميّة، طرابلس، ط1، 2002، ص135. محمّد علي سلطاني، التّدكرة في المعاجم العربية، دار العصماء، دمشق، ط1، 2001، ص ص6، 13.

(19) - حلمي خليل، مقدّمة لدراسة التّراث المعجمي العربي، دار المعرفة الجامعية، 2003، ص303.

(20) - حمدان حسين محمّد، التّفكير اللّغوي الدّلالي، ص ص135، 138. يراجع الجدول الذي قدّمه الباحث ليوضّح فيه أهمّ ما صنّف في الحيوان. ص ص141، 144.

(21) - المرجع نفسه، ص ص157، 162.

(22) - عبد المجيد الحرّ، المعجمات والمجامع العربية، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1994، ص ص12، 13.

(23) - يقول: " ولمّا كانت هذه السّمة أصلاً من أصول منهج التّفكير في الحضارة العربية، فقد تمخّض البحث عندهم عن امتحانٍ معرفيٍّ لجملة المعطيات التي تقع تحت ملاحظتهم. وبما أنّ اللّغة كانت تقع في مركز

اهتماماتهم، فقد صار الكلام عندهم معرفة، لأنّ الإنسان به يصبح دالاً ومستدلاً. ومن هنا، صارت معرفة الكلام جزءاً من المعرفة". منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، ص88.

(24) - ويذكر في هذا الصدد ما قام به ابن جنيّ في قضية التعددية، ويرى بأنّ منهجية ابن جني تنقسم إلى قسمين: إقراري وتفضيلي، بحيث يضع ابن جني في المبحث الأول قاعدتين، يؤكّد فيها على تعدّد اللّهجات واقعاً لغوياً، واعتبار كلّ لهجة حجة. أمّا القاعدة الأولى، فقد بناها انطلاقاً من ملاحظة الواقع وتحليله. وأمّا الثانية، فقد بناها من خلال منظورٍ كلّّي، قاصداً من ورائه استخراج القوانين العامة للكلام، أو الوقوف عليها. والتفاضلي المقصود به عند ابن جنيّ، اختيار وجه من وجوه الإنجاز اللّغوي وتفضيله على وجه آخر. المرجع نفسه، ص90، 91.

(25) - المرجع نفسه، ص ص87، 98.

(26) - محمود سليمان ياقوت، معاجم الموضوعات، ص16.

(27) - أحمد طاهر حسنين، نظرية الاكتمال اللّغوي عند العرب، القاهرة، ط1، 1987، ص198.

(28) - ابن منظور، لسان العرب، تح/ عبد الستار أحمد فراج، دار صادر، بيروت، ط1، 1985، المقدمة.

(29) - محمّد رشاد الحمزاوي، المعجمية، مقدّمة نظرية و مطبّعة/ مصطلحاتها ومفاهيمها، مركز النّشر الجامعي، تونس، 2004، ص ص15، 16.

(30) - عبد السّلام المسديّ، العربية و الإعراب، مركز النّشر الجامعي، تونس، 2003، ص ص10، 11.

(31) - تمام حسان اللغة العربية معناها و مبناها، عالم الكتب، ط3، 1998، ص ص314، 315. يقول الباحث " أحمد مختار عمر " مفسراً القضية: " أهمل التّركيبيون الأمريكيون صناعة المعجم في القرن العشرين ووجّهوا اهتمامهم إلى فروع أخرى مثل الفونولوجيا والنّحو. وقد ظلّ كثيرون ينظرون إلى المعجم على أنّه ملحقٌ بالنّحو، أو قائمة من الاستثناءات الأساسية، إلى أن ظهرت نظرية الحقول الدّلالية فردّت العمل المعجمي إلى حظيرة علم اللّغة باعتبار أنّ هذه النّظرية تعطي مفردات اللّغة شكلاً تركيبياً يستمدّ كلّ عنصرٍ فيه قيمته من مركزه داخل النّظام العام، وتضع المفردات في شكل تجمّعي تركيبّي ينفي عنها التسيّب المزعوم ". أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998، ص ص30، 31.

(32) - عبد السلام المسدي، العربية و الإعراب، ص59.

(33) - المرجع نفسه، ص ص57، 58.

(34) - المرجع نفسه، ص76.

(35) - ملكا افتش، اتجاهات البحث اللساني، تر/ وفاء كامل فايد، سعد عبد العزيز مصلوح، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2000، ص66.

(36) - المرجع نفسه، ص ص66، 67. ويرى الباحث " عبد الرّحمن الحاج صالح " أنّ " اللّغة - عند فان هابمولدت - هي شرط لازم لوجود الفكر. لأنّها وسيلة من وسائل تحقيقه فيها يستحكم وبها تصوير الهواجس وضباب المعاني والمقاصد أفكاراً واضحة، محصّلة محدّدة... وبما أنّ مهمّة اللّغة هي مساعدة الدّهن على حصر المعاني وتوضيحها وبما أنّ المعاني لا حصر لها (لأنهاية لها) فيلزم أن تستعمل اللّغة وسائل محصورة

العدد استعمالاً غير محصور... وليست اللغة رسماً مطابقاً للواقع ولذلك فإن لكل شعب نظرة خاصة إلى الواقع تتراءى فيه لغته. والصورة الباطنية للغة هي التي تدل على شخصية الشعب ". عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (3)، مجموعة مقالاته، مجلة اللسانيات، مج 1، ج 1، 1971، ص ص 24، 25.

- (37) - أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر/ كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط 12، ص ص 179، 180.
- (38) - أحمد محمد قدور، مقدمة لدراسة التطور الدلالي، في العربية الفصحى في العصر الحديث، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، يناير فبراير مارس، 1986، ص ص 36، 37.
- (39) - إبراهيم السامرائي، معجميات، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط 1، 1991، ص ص 37، 38. يقول في موضع آخر: " ولكن النظر في المعجم العربي القديم لا يبصر بهذه العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذي انتهت إليه المادة و خلصت له. وعلى هذا فإن المعنى الحقيقي صار من قبيل المواد المهجورة لعدم الحاجة إلى استعماله ". التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، 1997، ص 43.
- (40) - محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص 114، 115.
- (41) - عبد السلام المسدي، العربية والإعراب، ص ص 79، 80.
- (42) - مصطفى صادق الرافعي، الإعجاز اللغوي والبلاغة النبوية، المكتبة التوفيقية، ص ص 71، 72.
- (43) - جورج ماطوري، منهج المعجمية، تر/ عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص ص 71، 74. وفي ذلك يرى تريير Trier: " أن قيمة كلمة ما لا يمكن تحديدها إلا بتعريفها ضمن علاقتها بقيمة الكلمات المجاورة لها والمتباينة معها، إنها لا تحصل على معنى إلا باعتبارها جزءاً من كل ولهذا فإنه ليس هناك من معنى إلا داخل المجال ". Lyons, semantics, cambridge university press, 1977, p252.
- (44) - المرجع نفسه، ص 93. وهذا الباحث يمثل مدرسة لسانية فرنسية تقصر المعجمية على الصلة القائمة بين المفردات وتطور المجتمع وتغيره، وبذلك تصبح المعجمية فرعاً من فروع علم الاجتماع، ينظر محمد رشاد الحمزاوي، المعجمية، ص 43.
- (45) - عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص 370.
- (46) - سمير شريف استيتية، ثلاثية اللسانيات التواصلية، مجلة عالم الفكر، العدد 5، المجلد 34، يناير، مارس، 2006، ص 11.
- (47) - بلقاسم ليارير، النمو اللغوي، من خلال لسان العرب، الزيتونة للإعلام والنشر، ص ص 27، 28.
- (48) - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 8، 2003، ص 91.
- (49) - جورج ماطوري، منهج المعجمية، ص 129.
- (50) - المرجع نفسه، مقدمة المترجم، ص 10.
- (51) - المرجع نفسه، ص 130.

(52) - المرجع نفسه، ص 130.

(53) - المرجع نفسه، ص 131. وعلى هذا يرى الباحث " أن الكلمة الشاهدة عبارة محدثة *Néologisme*، والتغير المفاجئ الذي يولدها هو الدليل على الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والجمالية الجديدة... ". المرجع نفسه، ص 131.

(54) - المرجع نفسه، ص ص 132، 133.

(55) - عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات و اللغة العربية، ص ص 371، 372.

(56) - يرى الباحث " أحمد مختار عمر " - من خلال رأي نيدا - أن الوحدة المعجمية متعلقة بالصيغة والوحدة الدلالية متعلقة بمعنى الصيغة، ينظر علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط 5، 1998، ص 32. وقد عدّ ابن فارس الأولى أصلاً والثانية فرعاً. محمد رشاد الحمزاوي، المعجمية، ص 43.

(57) - محمد رشاد الحمزاوي، ظاهرة المعجمية و سبلها إلى الإحاطة بالخطاب الإنساني والعربي، المجلس الأعلى للثقافة، 1996، ص 15.

قسم خليل بن أحمد بنية الوحدة المعجمية إلى دنيا (ثنائية) ووسطى (ثلاثية) وكبرى (رباعية و خماسية). خليل بن أحمد، كتاب العين، بغداد، 1988، ص 43. محمد رشاد الحمزاوي، المعجمية، ص 26.

(58) - المرجع نفسه، ص 29. ويرى الباحث نفسه أن مدلول الوحدة المعجمية استندت به رؤيتان، الأولى أن المدلول الأفضل هو المدلول الواحد المعبر عن الشيء الواحد (أحادية المعنى) وهو ما سماه العرب المعنى العام، والثانية التي ترى أن الصلة بين الدال ومدلوله صلة مطلقة... ص 31.

(59) - منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، ص 60.

(60) - الجاحظ، البيان و التبيين، تح/ درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1999، ج 1، ص 58. فد يتبادر إلى الذهن أن هذا المفهوم للصوت خاص بالجاحظ دون غيره، وبالتالي يجب الرجوع إلى البيئات المختلفة لاستجلاء هذا المفهوم، ولكن الاختلاف يكمن في الأهمية وليس في المفهوم كما يتوهمه البعض.

(61) - حلمي خليل، مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، ص 124.

(62) - عبد السلام المسدي، العربية والإعراب، ص ص 92، 94.

(63) - عبد السلام المسدي، صياغة المصطلح و أسسها النظرية، تأسيس القضية الاصطلاحية، بحوث و دراسات، المصطلح العلمي، بيت الحكمة، قرطاج، 1989، ص ص 20، 21.

(64) - عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية، والتراث البلاغي العربي (دراسة تطبيقية)، مكتبة الإشعاع ط 1، 1999، ص 9. ويقول أيضاً: " ... إن الدلالة لا تتوقف عند حد معين، لأنها من ناحية متنوعة، كما أنها متطورة من ناحية أخرى، فهناك الدلالة الصوتية التي تستمد من طبيعة الصوت في العبارة المسموعة، فبمجرد تغيير صوت الحرف، أو نبره أو تنغيمه، يتبعه غالباً تغيير في الدلالة، يخالف الدلالة التي كان عليها قبل حدوث تلك الأشياء. كما أن الدلالة الصرفية، و الصورة التي تأتي عليها الكلمة، والتغيير الذي يلحقها يؤدي إلى تغيير في الدلالة أيضاً، مثلما يحدث في العدول إلى صيغة المبالغة، فإن ذلك يعطي المتكلم قدراً أكبر من الدلالة لم يكن ليحصل عليه في الصيغة العادية، وشبيه بذلك الدلالة النحوية... ". ص 9.

- (65) - محمد بن عبد الغني المصري، نظرية أبي عثمان في النقد، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 1987. ص179، 180.
- (66) - حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه و تطوّره، إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص ص280، 281.
- (67) - المرجع نفسه، ص282.
- (68) - حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، 2003، ص ص168، 169.
- (69) - نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص188.
- (70) - مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسان الحديث، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1988، ص562.
- (71) - حمّادي صمّود، التفكير البلاغي، ص285. وفي ذلك يقول ابن قتيبة مثلاً: " وذلك من خلال قوله: " ومن ذلك: (الفقير والمسكين) لا يكاد الناس يفرّقون بينهما، وقد فرّق الله تعالى بينهما في آية الصدقات فقال جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ التوبة، الآية60. وجعل لكلّ صنفٍ سهماً، والفقير: الذي له البُلغة من العيش، والمسكين: الذي لا شيء له... ". أدب الكاتب، تح/ درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002، ص37.
- (72) - محمد عبد المطلب، جدلية الأفراد و التركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط2، 2004، ص ص87، 88. ويعتقد الباحث "عبد السلام المسدي" وفق التصور الوجودي: " أنّ أوّل ما يطالنا من مستخلصات تفكير الحضارة العربية في هذا المضمار باعتبار أنّ اللّغة في يد الإنسان مفتاح يلج به باب العالم الخارجي. بل هي المفتاح الوحيد الذي يتوصّل به الإنسان إلى اقتحام الكون من حوله. وهي بذلك المعبر الفريد الذي يتحاور بفضل الإنسان مع الوجود ليتفاعل معه ". عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1981، ص53.
- *** - البقرة، الآية158.
- (73) - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتتوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مج1، ج1، ص23.
- **** - النحل، الآية47.
- (74) - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتتوير، مج1، ج1، ص ص21، 22.
- (75) - الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح/ يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987، ج1، ص211.
- (76) - منذر عياشي، الكتابة الثنائية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، ص ص18، 19.